د. فوزية بريون

محاولة في تأصيل الكتابة

تفتقد اللغة العربية إلى كتب ونصوص عصرية[١] تبحث في نظرية الكتابة من حيث هي مفهوم وإشكالية وإستراتيجية لغوية وفكرية؛ في حين تزدحم لغات أخرى بكتب ودوريات تتناول هذه العملية الذهنية الضاربة بجذورها في التاريخ، والمتصلة بوشائج القلق الإنساني المصاحب للبحث عن الحقيقة والتدرج في مدارج المعرفة العقلية والروحية، والتعبير عنها وعن كل ما يجيش بالنفس.

ولعل أبرز الفلاسفة الغربيين الذين تناولوا هذه الظاهرة في القرن الماضي الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، الذي نشر سنة ١٩٤٧ كتابًا صغيرًا بعنوان «**ما هو الأدب؟**»، طرح فيه مجموعة من الأسئلة المتعلقة بالتعبير، مثل ما الكتابة؟ ولماذا نكتب؟ ولمن؟، لينظِّر بعدها لمفهوم الالتزام الذي شاع في ستينيات القرن الماضي. ثم ما لبث أن طُرحت هذه التساؤلات وذلك المفهوم على المشهد الثقافي العربي بعد أن تُرجم الكتاب إلى العربية سنة ١٩٦١. وتبنت مجلة الآداب البيروتية مناقشة هذه الأسئلة، في بعدها الفلسفي والمنهجي، فطرحتها بدورها على كتاب وأدباء المرحلة لاستشراف آرائهم.

ولم يُنظِّر للكتابة بعد ذلك إلا ضمنًا عبر الكتابات النقدية المندرجة تحت مظلة الحداثة المتخلقة في رحم إشكالات حضارية متشابكة حفلت بها الثقافة الغربية. وعليه نجد أن

بعض النقاد قد عرضوا ضمنًا لنظرية الكتابة من منظور المذاهب التي طبقوها في مقارباتهم النقدية المستقاة من المناهج الحداثية وما بعد الحداثية مثل البنيوية والسيميائية والتفكيكية وغيرها. وقد خرج الدكتور عبد الملك مرتاض في منعطف القرن الحالي بكتاب أسماه «الكتابة من موقع العدم»[٢] محاولاً فيه التأصيل لنظرية عربية في الكتابة، تتصل بمبادرات القدماء وآرائهم في الموضوع، وتُخضع للبحث والمساءلة الآراء المستقاة من منظومة معرفية مغايرة، والمستندة إلى سياقات فلسفية غربية.

والمتأمل في خصائص الكتابة العربية قد تلفت نظره إشكاليات عدة صارت تعاني منها هذه الكتابة في السنوات الأخيرة، يكشف عنها ما تفيض به وسائل نقل المعلومات الحديثة، وتحديدًا الكتابات التي تزخر بها الصحف والمواقع والمدونات الإلكترونية. وعلى الرغم من التسليم بأن **معظم** ما ينشر عبر هذه الوسائل لا يرقى إلى مستويات الكتابة الهادفة، وأنه عبارة عن فقاقيع تتلاشى في مدة وجيزة، وذلك لكونها استجابات آنية لأحداث ومواقف عابرة. وعلى الرغم من أن **أغلب** متعاطيها لا يمتلكون ناصية الكتابة، التي هي أكثر من وصل الحروف بعضها ببعض؛ فإن هذه الظاهرة لا شك مؤثرة ـ شئنا أو أبينا ـ على القراء الذين يتغذون على مثل هذه الكتابات الركيكة. ومما يؤسف له أن هذا التأثير يقوِّيه تدهورفي مستوى التعليم، وتدنٍّ في الثقافة، واعوجاج في الذائقة الفنية والأدبية، وكل ما ابتليت به أوطاننا العربية في هذا المنعطف الخطير من تاريخها، مما يجعل من هذه الكتابات الغثة معولاً من معاول الهدم الثقافي. ولقد صوَّر أحد الكتاب هذا الوضع تصويرًا جيدًا فقال:

«لقد ابتُلي الناس بمطبوعات ووسائل نشر تقذف يوميًّا أو أسبوعيًّا أو دوريًّا أو غير ذلك؛ مقالات ودراسات وكتبًا يكاد يحلف قارئها يمينًا مغلظة بين الركن والمقام أنها كتبت بالقدم لا اليد، وأنها كتبت ساعة مس أو صرع أو خبل منقطع أو متصل. وما حلّ بنا هذا البلاء المتناسل إلا من شهوة الكلام وحب التزيد وداء الغرور ومرض الشهرة، ولو بشر حال وأسوأ مقال»[٣].

وعبّر آخر عن هذه الظاهرة شعرًا فقال:

تعس الزمان فقد أتى بعجاب ومحا فنون الفضل والآداب
وأتى بكُتاب لو انبسطت يدي فيهم رددتهم إلى الكُتاب

مشهد الكتابة الليبي:

وإذا ألقينا نظرة على مشهد الكتابة الليبي، في الداخل عبر الصحف التي تصدرها الدولة ـ إذ ليس هناك صحف حرة كما نعرف ـ وفي الخارج عبر الصحافة الإلكترونية والمواقع الإخبارية والإعلامية التي تنشر علينا مقالات وكتابات متنوعة، نجد أنه مشهد باهت في عمومه لأنه يكتظ بكتابات متواضعة تنقصها الجودة قلبًا وقالبًا، وتعكس ضعفًا في الفكرة والبيان معًا. واستقراء للوضع في عمومه لا نتردد في تشبيه الصحف الرسمية التي تصدر في الداخل بالصحافة المدرسية المفتقدة للمهنية، والدائرة في فلك الأيديولوجيا الضيقة، والمحصورة في قيود الشعارات التي يكذبها الواقع. وهي محدودة جدًّا في بعدها الفكري إذ يعرض أغلبها لجوانب محلية، ومن زوايا مرسومة لا يسمح بالحيد عنها أو التزيد فيها. وهي لا تستطيع حتى في تناولها لقضايا عربية وإسلامية وعالمية التخلص من أفقها الضيق وشعاراتها المستهلكة.

أما المجال الثقافي والإبداعي فمتواضع هو الآخر، إذ لا يمكنه إلَّا أن يعكس الواقع المتولِّد عنه؛ وهو واقع يُغلِّب السياسة بمعناها السلبي(٤) على الثقافة والفكر والإبداع، والتي لا تزدهر إلَّا في جو مشبع بالحرية. وعلى الرغم من وجود مواهب شابة في خضم هذا المشهد، فإنه لا يخفي أنها تتقدم بصعوبة، وبمجهود فردي خاضع للاختبار والتصنيف، وبعد دخولها في صراعات مهدرة للطاقة. كما أن غياب الحرية وقفل الباب أمام المبادرات الفردية في إنشاء مؤسسات ثقافية وأدبية فاعلة جعل المثقفين الحقيقيين يحجمون عن الفعل الثقافي ويتركون المجال لمن تتوفر فيه الشروط التي تفرضها السياسة بمعناها السلبي المذكور!.

ولقد ظلت الدولة تهمل وضع خطة للتنمية الثقافية تسمح بتأسيس ورعاية حركة حقيقية تقوم على التفكير النقدي والدربة الفنية والبيئة الثقافية الداعمة؛ وهو إهمال مقصود أسهم في تدني المستوى الثقافي والإبداعي الليبي عامة. وتكفي الإشارة هنا إلى أن الأسماء التي لمعت في سماء الإبداع من مثل أحمد إبراهيم الفقيه وإبراهيم الكوني وصادق النيهوم إنما أبدعت ولمعت وهي خارج بيئتها، أي حين خرجت من الشرنقة الضيقة والقيود الموضوعة التي أعاقت العشرات غيرهم.

أما الصحافة الإلكترونية التي يحررها ليبيون خارج وطنهم، فقد جعلت أولوياتها منذ

البداية سياسية، وإن لم تُقص الجانب الثقافي والإبداعي. وقد فتح الإنترنت في العقد الأخير بابًا نحو فضاء لا نهاية له للنشر والاتصال وبث الأفكار وإبراز الحقائق، بل وتزييفها أيضًا!، ولذلك فقد ارتاده كل من هب ودب حتى فاض بالغث والثمين، والغث أغلب. ولا بد هنا من الإشارة إلى حقيقتين أساسيتين: الأولى هي استغلال هذه الأداة ـ المؤسف ـ من قبل البعض في تصفية الحسابات الشخصية والنيل من سمعة الأشخاص، وإثارة الصراعات غير المنضبطة بأخلاقيات الكتابة والاختلاف؛ والثانية هي تدني مستوى هذه الكتابة سواء من حيث اللغة أو الأسلوب أو الموضوع أو المنهج؛ وذلك لأن الذين اكتظ بهم هذا المجال لم يؤهلهم لدخوله سوى قدرتهم على ربط الحروف وجعلها قابلة للقراءة. وقد لاحظ اللغويون أن كتابات الإنترنت، بلغاتها المتعددة، في معظمها ضحلة ورديئة. ويرون أنها لذلك تهدد القراءة وتفسد الذائقة وتسطح الفكر. ومع ذلك، فإن شبكة الإنترنت لا تخلو من كتابات جادة ودراسات رصينة، وإن لم تكن في الأصل قد كتبت للإنترنت وإنما وضعت عليه بعد نشرها في مكان آخر، من أجل تعميم الفائدة.

إن هذا الوضع الذي تعاني منه الكتابة العربية في عمومها، والليبية على وجه التحديد قد نتج عن عدة عوامل؛ أولها تحكم الأيديولوجيا في الفكر، واستبداد السياسة بجميع مناحي الحياة، وتفريغها للمضامين الثقافية واستبدال بها بشعارات استهلاكية؛ بالإضافة إلى تدني المستوى العلمي والثقافي للمجتمع بسبب انهيار المنظومة التعليمية وهشاشة مخرجاتها. وغني عن القول أن الكتابة في جوهرها ومظهرها إنما تعكس الوضع الذي أنتجها، ولذلك فهي تولد عاجزة عن الارتقاء بالعقول الموجهة إليها، بل إنها تسهم أحيانًا في تسطيح عقولهم وتدني تفكيرهم!

وهنا يحق لنا إسهامًا في ألَّا يزداد الوضع سوءًا، أن نعيد الأسئلة نفسها التي طرحت إبان الستينيات، وهـي:

ما هي الكتابة؟.. ولماذا نكتب؟.. ثم لمن نكتب؟

وهي أسئلة احتفظت بمعياريتها وقدرتها على أن تعيدنا إلى البوصلة التي نقيس بها فعالية الممارسة، بل عموم المشهد الثقافي؛ وتعيدنا إلى مرجعيات الكتابة الهادفة، باعتبار أن إنتاج الكلمة ونشرها مسؤولية فكرية وأخلاقية قبل كل شيء، ولذلك فلا عجب أنها ترتبط بجوهر الدين نفسه، حيث نجد أن الرحمن الذي ﴿خلق الإنسان علّمه البيان﴾ «هو» الذي علّم

بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم» وهو الذي أقسم بهذا القلم كاتب الكلمة ومنتج الفكرة، وبالسطور التي تحتوي على ما تحتوي عليه من أفكار يمكنها أن تمس القلوب وتؤثر في النفوس فتغير بالتالي واقعًا ما، إما إلى خير أو إلى شر، فقال:﴿**نون والقلم وما يسطرون**﴾، وفي هذا قال الشاعر:

كفى قلم الكُتاب عزًّا ورفعة   مدى الدهـر أن الله أقسم بالقلم

وقد توقف القرآن في موضع آخرمتسائلًا بما يفيد التأكيد ولفت النظر فقال: «**ألم تركيف ضرب الله مثلًا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربـها**» ولكي ينفّر من المثال المخالف والمناقض ضرب لنا سبحانه مثلًا مقابلًا، فقال: ﴿**ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار**﴾. وحيث إن الكتابة في جوهرها خطاب وقول فإننا نستمد في هذا المقام من الحديث الشريف تنبيه نبينا ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»، والخيرية هنا معنى جامعٌ لقيم الحق والخير ومختلف المعاني السامية. وفي الماضي قال الشاعر:

فإن لم تجد قولًا سديدًا تقوله   فصمتك عن غير السداد سديد

أنواع الكتابة:

الكتابة من حيث الشكل هي عملية إنشائية تعبيرية، مادتها اللغة بتراكيبها ومدلولاتها وصورها، يقصد بها التبليغ. وأما من حيث الجوهر فهي نص يحمل في ثناياه فكرة يُهدف إلى توصيلها ويُؤمل في أن تحدث أثرًا عقليًّا ذهنيًّا، أو ذوقيًّا وجدانيًّا، أو كليهما معًا.

وإذا نظرنا إلى مجالات الكتابة نجدها لا تحد؛ لأن أفكار الإنسان وأحاسيسه وتقلبات نفسه وإشراقات روحه واستكشافات عقله هي الأخرى لا تحد. وكلما تطورت الحياة وتعقدت زادت تلك المجالات، ومع ذلك يمكن إرجاعها من باب التقسيم المنهجي إلى نوعين مهمين هما:

الكتابة الموضوعية والكتابة الذاتية

الكتابة الموضوعية:

وهي التي تتناول كل ما يتعلق بوقائع الحياة والأفكار والمجتمع، وبالواقع المرتهن بشروط الزمان والمكان. وجدير بالذكر أن هذا النوع من الكتابة، وإن كان يستخدم العقل

ويخاطبه، فهو لا ينفصل عن ذات الكاتب ووجدانه، إذ لا بد أن يتضمن آراءه ورؤاه، وموقفه من العالم والحياة. ولكن الحقائق الموضوعية تحتل الأولوية، وهي المقدمة في ترتيب الأجزاء وبناء الكل للوصول إلى النتيجة المحددة؛ فلا يطغى الرأي الشخصي والميل النفسي على الحقائق أو معطيات الواقع. ويتطلب هذا النوع من الكتابة إعمال العقل والالتزام بالمنطق، مع تنظيم الأفكار والتسلسل في العرض، بهدف ربط المقدمات بالنتائج والأسباب بالمسببات. كما يستدعي استعمال طرق التحليل أو التركيب أو المقارنة، واستخدام وسائل الاستنتاج أو الاستنباط. ووظيفة هذا النوع من الكتابة وظيفة تبليغية في الأساس، إذ تحمل كل كتابة موضوعية معها (رسالة) تتضمن فكرة أومفهومًا يقصد الكاتب (المرسِل) توصيله إلى القارئ (المرسل إليه) بوسيلة معينة هي اللغة.

والكتابة الموضوعية ذات ألوان متعددة، منها الاجتماعي والسياسي والتاريخي والفكري وغيره؛ وقد يتفرع كلٌّ منها إلى مواضيع جانبية ذات صلة. ويحتاج هذا النوع من الكتابة إلى قاعدة معلومات وإلى مصادر ومراجع، وإلى أعمال سابقة ينطلق منها الكاتب ليضيف جديدًا، أو يبرز جوانب مهملة، أو يربط تلك الأعمال بغيرها من أجل تصحيح خطأ أو إضافة شيء غفل عنه الآخرون.

الكتابة الذاتية:

وهي التي تشتبك بالنفس وتمتزج بالأحاسيس وتتوجه إليها مستكشفة دروب التشكيل الأدبي بغرض إحداث لذة فنية وتقديم تجربة جمالية. وينتمي هذا النوع من الكتابة إلى عالم الإبداع والابتكار، حيث تتمركز الذات وتنطلق الروح وتتوالد المشاعر في دنيا التأمل والاستكشاف. ويتطلب هذا النوع من الكتابة مقدرة لغوية وتمكنًا بلاغيًّا من اللعب بالكلمات والنسج بالحروف والرسم والتلوين بالتراكيب والتعابير. كما يتطلب من الكاتب نشاطًا وحيوية في الجانب التخيّلي الذي تسميه الكاتبة جوليا كاميرون[٥] «الطفل الفنان» القابع في أعماق كل مبدع، والذي يضطر كثير من الكتاب إلى كبحه بدرجات مختلفة، وذلك لنفوره من صرامة العقل والمنطق، ومن الحياة التقليدية الرتيبة.

وللكتابة الذاتية الإبداعية أنواع وأجناس عدة؛ فبالإضافة إلى الألوان التقليدية من شعر وقصة ورواية ومسرحية وسيرة، فإن هناك فروعًا يضمها كل جنس، ولكلٍّ منها خصائصه وقواعده الفنية التي يجب أن يتمكن منها الكاتب. وقد تداخلت في عصرنا هذه الأجناس

بعضها مع بعض، فنجد القصيدة السردية والحوارية، كما نجد القصص والروايات التي تنضح بالشعرية وتستخدم لغة القصيد وصوره كما تستفيد من تقنيات المسرح والسينما وغيرها من الفنون[٦].

ومثلما توجد أصول وقواعد ومناهج تحكم الكتابة الموضوعية وتنظم أنواعها المختلفة، فإن للكتابة الذاتية أو الفنية هي الأخرى أصولًا وقواعد تميزها وتحفظ خصائصها. ولذلك نجد أن لكل لون أدبي ما يميزه عن غيره من أصول عامة ومنطق خاص، بحيث يبدو «خرق» تلك القواعد أو ذلك المنطق منالًا صعبًا يهفو إليه المبدعون سعيًا للاختلاف الخلاق والسبق الاستكشافي. وهذا «الخرق» أو «العدول» أو «الانحراف» كما يسميه آخرون ليس شيئًا اعتباطيًّا أو فوضويًّا، وإنما هو انفلات إبداعي، إن صح التعبير، لا يتمكن منه كل مبدع. وهو إذا حقق نجاحا وأنبأ عن موهبة ومقدرة إبداعية فإنه سرعان ما يندمج في قواعد ومنطق ذلك اللون الفني أو الجنس الأدبي. ويتطلب هذا النوع من الإبداع مستوى عاليًا من القدرة على التخيُّل والابتكار يجعل من «الخرق» أو«الانحراف» إضافة جديدة تحقق المفاجأة وتزرع الدهشة وتخلف المتعة واللذة التي هي مبتغى كل عمل إبداعي، شريطة ألا يتنافر ذلك مع الذائقة الأدبية المحكومة حتمًا بالعصر والبيئة، وبعبقرية اللغة المستعملة وقواعدها الراسخة.

وتتحكم في عملية الكتابة في عمومها ثنائيات متداخلة تشحذها وتمنحها التنوع والتمايز، نذكر منها الآتي:

اللغة والأسلوب:

فلا تتأتى الكتابة إلا باللغة، ولا تتجلى جماليات أي لغة إلَّا بالكتابة.

واللغة أصوات تعبر عن مفاهيم وحاجات يتحقق بها التواصل بين الناس. أما الكتابة فهي حروف مرسومة تختزل تلك الأصوات بكل ما تحتويه من دلالات. ولذلك، فاللغة تراث مشترك شائع بين القوم الذين يستعملونها. ومع ذلك، فإن الكُتّاب والمبدعين وإن كانوا يشتركون مع أقوامهم فيها فإنهم لا يستعملون ذات اللغة، وإنما يرتقون بها ويتفننون في نحت عباراتها وتركيب جملها وهندسة تراكيبها. ولذلك، نجد أن اللغة المدونة تختلف عن المنطوقة أو الشفهية، ليس فقط عند العرب الذين ابتلاهم الله بازدواجية اللغة (فصحى– عامية / مكتوبة ـ محكية) ولكن أيضًا عند غيرهم من الأقوام الذين تتقارب استعمالاتهم

اللغوية للأغراض العقلية والنفعية معًا. وبالإضافة إلى ذلك، فإننا نجد أن لكل فئة من الناس معجمها اللغوي الخاص بها، فالمثقفون لهم لغتهم، وغير المثقفين لهم لغتهم، ومثل ذلك الصناع والفلاحون والأطباء والمهندسون والحقوقيون وغيرهم.

أما الأسلوب فهو الطريقة التي ينتهجها الكاتب في التعبير عن أفكاره المتضمنة في نصه المكتوب، حيث ينتقي من معجمه الخاص مفردات وتعبيرات وأبنية بعينها يختارها من إمكانات متعددة موجودة في النظام اللغوي، ويرتبها على نسق معين يختص به دون غيره. ويعكس الأسلوب شخصية الكاتب، حيث يشف عن مزاجه وحالته النفسية وثقافته العامة وفلسفته في الحياة ورؤيته للعالم؛ حتى ليقال إن الأسلوب هو الرجل نفسه[٧].

الموهبة والصنعة:

الكتابة في حقيقتها موهبة، أي استعداد فطري وميل ذاتي ومقدرة ذهنية ولغوية تتفتق وتنمو عبر مراحل من حياة الإنسان؛ ولكنها لا تعيش ولا تكتمل إلا بالدربة والتعلم والاكتساب. وهذا يعني أنها تتطلب الممارسة والتمرين المستمر؛ فالكتابة عند المحترفين ليست استجابة لرغبة عابرة أو حدث طارئ، وإنما هي رغبة ملحة متصلة تؤتي ثمارها من خلال برنامج منتظم يبدأ بالتأمل والتفكير، ويستند إلى الأحاسيس والمشاعر بحيث تتجلى الموهبة في ثوب من السلاسة والوضوح والرشاقة اللغوية. ويحتمل وفق ظروف معينة أن تضعف تلك الموهبة وتذبل أو تقف عند درجة دنيا من المهارة والإتقان . فإذا كانت الموهبة هي القدرة الفطرية الكامنة، فإن الصنعة هي تهذيب تلك الموهبة وتقويتها وشحذها وتنميتها، ويتطلب هذا الممارسة المنظمة والمستمرة التي يحقق بها الكاتب التمكن من مهارته.

التفكير والتعبير:

تحتاج كل كتابة إلى فكرة أو مجموعة من الأفكار تكون عمودها الفقري ومحورها الذي تدور حوله. فالكتابة في النهاية هي تعبير عن فكرة وشرح لها وإقناع بموقف تجاهها. وتحتاج الفكرة التي تقوم عليها الكتابة وتتأسس، قبل التعبير عنها بشكل نهائي، إلى التقليب والتعمق والنظر في جوانبها المختلفة حتى تختمر وتنضج. ويتطلب هذا قدرًا من القراءة والاطلاع، كما يستدعي أحيانًا البحث المنهجي بالرجوع إلى ما كتب في الموضوع نفسه أو ما يتصل به. ومن المفيد أحيانًا طرحها للنقاش بين رفاق الفكر وزملاء القلم وتسجيل مختلف الاستجابات والاستفادة منها.

ويشترط أن يكون التعبير عن الفكرة، بعد نضجها واكتمالها بينًا واضحًا، وفي ثوب قشيب من اللغة الصافية السليمة السهلة الممتنعة، وهي أرقى درجات الكتابة التي شرحها ابن مقفع عندما سئل عن البلاغة بقوله «هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسنها»!.

الميكانيكية والديناميكية:

تحتاج كل كتابة متقنة إلى عنصرين يجب توفرهما بغض النظر عن الموضوع المكتوب؛ أولهما الميكانيكية التي تعني اللغة المتفق عليها، المتوفرة على السلامة اللغوية والصحة النحوية، فلا اعتبار لكتابة من أي نوع ترفع المنصوب أو تنصب المرفوع، أو تجر وتجزم في غير المواقع المنصوص عليها نحويًا، كما لا اعتبار لكتابة تملؤها الأخطاء الإملائية أو يختلط فيها التذكير والتأنيث والإفراد والجمع، وتغيب فيها الروابط والأدوات أو الضمائر والإحالات، أو تساء استعمالاتها؛ فذلك لاشك يؤدي إلى سوء في الفهم أو إلى إرباكه على أقل تقدير. وقد يؤدي إلى نفس النتيجة غياب أدوات الترقيم بين العبارات والفقرات، وهو ما يحوِّل النص إلى كيان مائع لا تبين فيه قوائمه وركائزه من أطرافه.

أما ثاني ذلكما العنصرين فهو الديناميكية التي هي الروح المنبعثة من النص والمنسبكة في نسيجه اللغوي والمركبة لأجزائه والمنبثة في أركانه. وهي هذه الجدلية الممتعة بين الدال والمدلول، وبين الشكل والمضمون؛ المتمثلة في التداول والتبادل بين الأفكارالمتوالدة والمنسجمة، وهو ما يستدعي ترتيبًا خاصًّا للموضوع بحيث تؤدي كل فقرة إلى التي تليها، وتستند اللاحقة إلى سابقتها، مكونة مجموعة من الروابط الخفية بين مفاصل النص، التي تكسبه وحدته العضوية وطاقته التعبيرية، الموقدة لذهن المتلقي والمستثيرة لمخيلته والمشبعة لذائقته.

الكاتب والقارئ:

حيث إن الذات المنشئة هي المنتجة للنص (الرسالة)، فإن النص المصاغ ليس غاية في حد ذاته، بل إن الغاية الأسمى هي القارئ (المرسَل إليه) الذي يتمثله الكاتب نفسيًّا ووجدانيًّا طوال عملية الكتابة سواء نشر ما كتبه أو لم ينشره. وتكون هذه العلاقة ضمنية في البداية يتحكم فيها ويحدد شروطها الكاتب وحده، أما بعد النشر فإن القارئ يصبح هو المالك له وصاحب السلطة عليه، فيقوم بفهمه وتأويله والحكم عليه دون أن يملك الكاتب حق التدخل، ما دام كل ذلك يجري وفق المتعارف عليه في التعاطي اللغوي والفكري. وتمثل

هذه العلاقة مسؤولية أدبية للطرفين يتحقق بها الهدف من الكتابة والقراءة بوصفهما فعلين تحريضيين واستكشافيين تتفاعل فيهما عوالم الفكر والوجدان. ولا يقصد من هذا التحريض وذلك الكشف أو الاستكشاف سوى تغيير الواقع وتحسينه والارتقاء بمكوناته.

اللذة والمعرفة:

لا شك أن لتعاطي الكتابة لذة نفسية وعقلية ووجدانية لا توصف، ولذلك فهي بالنسبة لكثيرمن المبدعين عملية تداوي (therapy)، جنبًا إلى جنب مع الرسم والشعر والموسيقى. وهي وسيلة لمواجهة خبايا النفس والغوص في حناياها بكل ما تمور به من صراع بين شقيها الأمَّار واللوام؛ فيؤدي ذلك عند بعض الناس إلى تزكيتها وترقيتها وتعديل مسارها.

والكاتب الذكي المتدرِّب تربطه بالمتلقي علاقة فريدة تجعله حريصًا على نقل تلك اللذة إليه فيكون بارعًا في عرض أفكاره واختيار مفرداته وتراكيبه وصوره، ويتوجه لذلك المتلقي بكله، ومن أجله يهذب نصه ويصقله، ويرتب أفكاره ويحبك خطابه. لكن هذه اللذة التي تلتقطها ذائقة القارئ فتنير وجدانه ليست مستقاة من بناء النص اللغوي أو مستواه الإبداعي فقط، وإنما ترافق ذلك إضاءات معرفية وارتقاءات ذهنية تغذي العقل والوجدان معًا. أما ادعاءات الحداثة بأن الكتابة والإبداع مجرد تعاط لغوي بحت لا علاقة له بنظام الفكر ولا بنسق اللغة، فهو لغو فندته الأيام والفكر الجاد الملتزم.

***

خاتمة:

الكتابة عن الكتابة هي كتابة عن القراءة. فالقراءة هي المعين الذي يستقي منه فعل الكتابة ويستمد عناصره، ومنها يتكوَّن ويتخلَّق وينمو، وإليها يعود ويطمح. والقراءة سبيل الثقافة التي هي الشرط الأول لكل صاحب قلم. والنص الذي لا يتغذى على القراءة ولا يستمد منها، فكرًا ومنهجًا وأسلوبًا، سيعاني بلا شك من السطحية، ويفتقد العمق والمنهجية؛ فقديمًا قيل لتكتب صفحة لا بد أن تقرأ مئة. وليس المقام هنا مناسبًا لسرد فوائد القراءة، ولكن جدير بالإشارة ما تمنحه القراءة للمواظبين، خاصة إن كانوا من متعاطي الكتابة، من قدرة على التفكير المنطقي والتناول المنهجي والتمكن اللغوي والذائقة الأدبية؛ ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى ما تحققه القراءة من التراكم المعرفي الذي يساعد على التفكير النقدي ويكسب المقدرة على عرض أكثر الموضوعات الفكرية والأكاديمية صرامة.

أشرف ـ أبو زعكوك ـ ب ٣

والنص الذي يقبع مهملًا في الأدراج ولا يُقرأ هو في الحقيقة جسد في غرفة العناية لا يُعرف مصيره، أو هو في حالة ولادة متعسرة لم تمتلئ رئتاه بهواء الحياة بعد. وتجربة الكتابة، رغم أنها فعل فردي وطقس خصوصي، فهي من جهة أخرى ممارسة جماعية لأنها تجمع في ثناياها بين أفكار الآخرين وتراكيبهم وأساليبهم، وتجعلها حاضرة في نص الكاتب متلبسة بغلالة من شخصيته ومزاجه ورؤاه. فالقراءة والكتابة هما رئتا النص سواء كان ذاتيًّا أو موضوعيًّا، إذ يجب ألا يتبادر إلى الذهن أن الكتابة الإبداعية هي مجرد موهبة وتعبير عن أحاسيس ومشاعر فلا يجب على المبدع أن يتجه إلى أعمال الآخرين وإبداعاتهم فيقرأها ويتذوقها ويهضمها لتسري بدورها في خلايا كيانه الأدبي. ذلك أن الأعمال الأدبية في حقيقتها تراكمية، ولا تتفتق موهبة المبدع وتنمو إلا بواسطة القراءة الواعية الذكية المثابرة.

إن الكتابة والقراءة فنان جليلان يحتاج كلٌّ منهما إلى عناية جماعية وفردية.

تتمثل الجماعية في العناية بمناهج اللغة ومقررات القراءة والتعبير التي لا شك تحتاج إلى إعادة نظر وتصحيح مسار، فمناهجنا ضعيفة سقيمة، تشهد على ذلك نوعية الكتابات التي نقرؤها، **ولا تفوتني هنا الإشارة إلى أن الكتب التي تصدر عن المؤسسات الثقافية ودور النشر المختلفة في ليبيا تكتظ بالأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية والتركيبية، وهذا شيء مؤسف ومخجل يدل على عدم وجود مراجعين ومصححين في هذه المؤسسات، وهو في الحقيقة ناتج عن أنه لا قيمة للكتاب المنشور في بلادنا، وأن المهم في الأمر هو الكم وليس الكيف.**

أما العناية الفردية فتتمثل في رعاية الكاتب لموهبته وتعهدها بالدربة والمثابرة على الممارسة اليومية، وقراءة الأساليب الراقية والأعمال العظيمة. ومن المفيد جدًّا التأسيس لجماعات القراءة وجماعات الكتابة كما هو موجود في الغرب؛ حيث يوضع برنامج يشترك فيه مجموعة من القراء أو مجموعة من الكتاب، فيقرأ أفراد المجموعة الأولى عملًا ما، ثمّ يجتمعون لاستعراضه ومناقشة أفكاره والبحث عن خصائصة الفنية ومزاياه الأسلوبية.

أما مجموعة الكتابة فيكتب كل فرد منهم في أي موضوع شاء، ثم يجتمعون ليستمعوا إلى النصوص المكتوبة ويناقشوا مختلف العناصر، الأفكار واللغة والأسلوب وطريقة تنسيق الموضوع ومنهج التناول. وتحتاج هذه المجموعة على الخصوص إلى كاتب أو محرر متمكن يكون رائدًا للمجموعة، يشرف على المناقشة ويقوم بالتصويبات اللازمة التي قد لا يتمكن الناشئون من تبيُّنها والوصول إليها.

إن الأهم في هذه العملية برمّتها هو أن يدرك الكاتب متى توجه ببراعة للكتابة أنها مسؤولية عظيمة ورسالة ملزمة، فليصصح نياته حتى تكون كلماته أشجارًا طيبة أصلها ثابت في أرض واقع الاستخلاف، وفرعها في السماء يتسامق نحو مقامات العلا، تؤتي ثمارها اليانعة في كل حين، سواء كان كاتبها فوق الأرض أو تحتها، فليجعل الله دائما من وراء قصده. وهو سبحانه ولي التوفيق.

***

الهوامش:

١- يوجد في تراثنا العديد من الكتب التي التفتت إلى عملية الكتابة، نذكر منها: أدب الكاتب لابن قتيبة، والمثل السائر لابن الأثير، والصناعتين لأبي هلال العسكري، وصناعة الكتابة لأبي جعفر النحاس، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي

٢- عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، كتاب الرياض، العدد ٦٢-٦٣، يناير فبراير ١٩٩٩.

٣- أحمد بن عبد المحسن العساف، «صناعة الفكرة»، موقع الشهاب، وموقع إسلام أون لاين.

٤- يفرق بن نبي بين السياسة الجادة المبنية على أسس علمية وبين الدجل السياسي الذي يسميه (البوليتيكا).

٥-انظر كتاب: Julia Cameron, The Artist's Way, Pan, 1992.

٦ - انظر كتاب علقم صبحة أحمد، تداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية، المؤسسة العربية، بيروت، ٢٠٠٦.

***